اميل مبارك شاعر الضيعة

ونابغة الشعر اللبناني العامي

بقلم الاب رفائيل نخله اليسوعي

في الثلاثين سنة الاخيرة قد اشتد في لبنان رواج الشعر العامي ، ومن اوضح الادلة على ذلك كون خمس مجلات اسبوعية على الاقل ، مختصة به ، قد ظهرت في بيروت ، وهي « امير الزجل » ، « بلبل الارز » ، « المندلب » ، « الشعر القومي » ، « الزجل اللبناني » . بيد ان معظم القصائد العامية — اذا استثنينا بعض النوابغ الذين يُعدون على الاصابع ، مثل رشيد نخله ، « شحرور الوادي » ، ميشال طراد ، عبد الله غانم ، الزغني ، السبعلي — يدور محوره حول مواضيع مبتذلة ، خالية من عمق الفكر وسمو العاطفة ، مشحونة بالخيالات والتعابير المتحلة . اما لغته فهي مشوهة شبه معانيه ، لانها خليط كريه من اللغتين الفصحى واللبنانية ، لا يستسيغه هواة الاولى ويمجه المغرمون بالثانية من ذوي الثقافة العالية والذوق السليم . ولا بدع بذلك في نظر الواقف على شؤون الالسن وتطور آدابها ، فانه موقن ان جميع اللغات العامية ، كلما حاولت الارتقاء الى المستوى الادبي ، تخشى الظهور بثيابها البسيطة ، فترى بوهم باطل ضرورة تحسينها برُقع من حُلل امها ، اللغة الادبية القديمة ، مع ان الترقيع ملازم للتشويه مهما كان جمال الرُقع .

اما النوابغ فانهم لا يلجأون الى تلك الحيلة المنكرة ، بل الحلية المسروقة ، لان لهم من قرائحهم الفياضة بالافكار السامية والعواطف النبيلة والخيالات المبتكرة ما يبلغ به شعرهم ، مع لغته العامية ، اوج الحسن الادبي . فيُهم اذا رُواد الادب الشعبي ، يشقّون له بعبقريتهم مهايع جديدة قد انطبعت عليها آثار خُطاهم الجريئة ، فلا يلبث ان يأتي بعدهم من يُقفي عليها بدون عناء . وايم الحق ان اميل مبارك لجدير كل الجدارة بان نعدّه في طليعة اولئك الافذاذ المعرضين عن ذل الانتحال والمبدعين مادة قريضهم وصورته ابداعاً ، مستخرجين

اياها ، لا من قصائد اسلافهم ، ولو كانت فرائد ساحرة ، بل من اعماق ارواحهم ومن صميم الطبيعة ، التي كانت منذ القدم ولا تزال الى منتهى العصور مورد الهام لا تنضب مياهه ، مهما كثر عدد المستقين .

لقد اسعدني الحظ بمعرفة اميل مبارك منذ نحو سبعة عشر عاماً ، اذ ضمني واياه مجلس من مواليد الاتفاق ، فتحادثنا في شأن الادب العامي واعوجاج طريقته المألوفة ، فاتضح ان لنا فيه رأياً واحداً . ثم صرح لي بانه من هواة الشعر العامي ، فاخذ ينشد بلهجة حية مؤثرة ، عدة قصائد متنوعة من نظمه ، فوجدتها من الروائع التي تسوغ مقارنتها بابدع ما جادت به قرائح اعظم شعرائنا المتقدمين والمتأخرين باللغة الفصحى .

وُلد مبارك في ضيعة عينطورة الزوق بلبنان سنة ١٩٠١ ، وتخرج في مدرستها الثانوية الشهيرة للآباء اللازاريين . بعد ختام دروسه فيها توظف ثلاثة اعوام في شركة السكك الحديدية المعروفة ، ثم انتقل منها سنة ١٩٢٣ الى مهنة التدريس في بعض معاهد الحكومة اللبنانية .

ظهرت الطبعة الاولى من ديوانه « اغاني الضيعة » في القاهرة سنة ١٩٤٦ ، وهو كُتيّب بقطع صغير ، لا تشغل قصائده سوى ٤٥ صفحة . وقد صدّره حبيب جاماتي بمقدمة بليغة وصف فيها سرعة انتشار صيت شاعر الضيعة في لبنان ومهاجر اهله ، وصفاً دقيقاً ليس فيه ذرة من المبالغة ، فنقتطف منه العبارات التالية : « اغاني الضيعة هي اليوم على كل لسان ، ينشدها الفتى في قصره والفقير « في كوخه ، ويطرب لها اللبنانيون جماعات في سهراتهم امام المواقد شتاء ، وفي « حلقاتهم على ضفاف الغدران صيفاً . . . وقد تجاوزت اغانيه حدود لبنان ، « ولا غرابة في ذلك ، فليس للبنان حدود بفضل مهاجريه ، فنصف لبنان مقيم « ونصفه الآخر مغترب . واللبناني دائم الحنين الى وطنه حيثما سار واينما حط « رحى الترحال . واغاني الضيعة اللبنانية لشاعر الضيعة اللبناني قد انسابت « شيئاً فشيئاً الى حياة المهاجر في غربته ، فاختلطت بها . وهي الآن تنبعث « من افواه اللبنانيين المغتربين في مشارق الارض ومغاربها ، حاملةً تحياتهم « وتحيات ابنائهم ، ممزوجة بالوفاء والشوق ، الى وطنهم الاول في عهده السعيد « الجديد ، عهد الحرية والاستقلال والسيادة » .

مما يؤيد صحة هذه الاقوال ان فخامة رئيس الجمهورية السيد كميل شمعون بعد عودته من زيارة المهاجر اللبنانية في اقطار اميركة ، قد اكد لامير مبارك ان شهرته في تلك البلاد لا تقل عما هي عليه في وطنه ، وان الجاليات اللبنانية قد ادخلت في برامج الحفلات التقامة اكراماً لممثل لبنان الاعلى ، انشاد بعض اغاني الضيعة ، وعبرت له عن شوقها الحار الى مشاهدة ناظمها النابغة .

من يستغرب بعد كل ذلك كون الحكومة اللبنانية قد اخذت على عاتقها نفقات الطبعتين الثانية والثالثة لديوان مبارك النفيس ؟ قد صدرت الثالثة بكلاب النسخ في ايار ١٩٥٤ من مطبعة اليسوعيين في بيروت ، حاوية نحو مئة وعشرين صفحة ، وفيها الحان لكثير من القصائد وضعها السيد جورج فرح رئيس القسم الغربي في المعهد الموسيقي .

ليس مبارك من الشعراء المكثرين الذين لا يكادون يدركون الدرجة الوسطى من الاتقان لفرط اكثارهم . انه يؤثر الاجادة على الوفرة ، ونعم الايثار ! قال لي سنة ١٩٤٠ انه لم ينظم سوى ست وعشرين قصيدة ، وان كلاً منها قد اقتضى نحو شهر من الاكباب على تمحيصها ، بل قد استغرقت هذه العملية زهاء اربعة اشهر في احدى قصائده ! اما لغته فهي العامية المحضة ، ما عدا بعض فلتات قلمه او الاضطرار في ظروف نادرة الى استعمال كلمة فصيحة للتخلص من مأزق الاوزان والقوافي ، مما يُعذر عليه .

لغته رائعة بكثرة الفاظها وتعابيرها ، الدقيقة المعاني ، اللذيذة الرخامة ، فلا تجد فيها حشواً شائناً ولا ابهاماً مستهجناً . فضلاً عن ذلك يتحاشى في الغالب عن استعمال الكلمة ذاتها مرتين متقاربتين ، ولا يألو جهداً في انتقاء اوفق الالفاظ للدلالة على المعنى المقصود ، مهما كلفه ذلك من الوقت والعناء . كفى شاهداً على ذلك ما باح به لي من انه لم يهتد الا بعد شهر كامل من التنقيب الى هذا التعبير الدقيق « طرق الزراب » ، الوارد في قصيدته « العبا والتنوره » . فلا غرو من مبادرة الجرائد والمجلات الكبرى واذاعة لبنان وغيره الى نشر كثير من اغانيه .

معظم شعره وصفي ، يصور فيه على الاخص جمال وطنه المحبوب ، وقد

ابدع كل الابداع في وصف محاسن ربيعه وخريفه وشتائه ؛ اليكم قصيدته « الربيع » :

طل المصيّف عا لبنان ، لبست مشلحا الوديان ، ؟
سرح بالحقل القرقور ، النحله حامت عا البستان ،
رجع عا الغيضه الصفور ، عا السهل طار الفرفور ،
المرجه فرشت ارضا زهور نا نسيم قر نيسان .
عا الضيعه بان كبوش ، طلّوا جلابيط العشوش ،
بالبندر المشب مطروش متل حبات المرجان !
الشجره صارت تعطي فيّ ، ما بتنطاع لتقول « خيّ !»
حن الصخر وطيّلع ميّ نا تشرب منو الرعيان .
فاحت ريحة الزهره فوق التلال المنحدره ،
ومن تحت وراق الخضرا طل بنفسج النيسان .
صوت الطير ، خرير النهر تسبّح الله طول الدهر ؛
صاح الديك بشق الفجر : «سبحان الخالق ، سبحان!»

اليست تلك الابيات الفتانة ابداع مصور يشاهد منظرًا من مناظر الطبيعة بنظره الثاقب الذي لا تخفى عنه خافية من دقائق الاشياء ، ثم يفرغ كنانة جهده في تمثيل كل منها وفقًا للاصل ؟

بقدر ما ابهجنا وصفه لربيع لبنان تأسى عند سماع قصيدته في شأن الخريف :

ليكي ، يا اختي ، المرج كيف نام ودبل ؛ شوفي الزهور متشرته فوق التلل ؛
وليكي الطيور مدشره كروم الجبل ، وطولوا ليالي السود واصمّ الفقير !
شوفي البحر كيف اكتسى قمقان سود ، وشوفي رمال السهل كيف تصبت عمود ؛
وشوفي النيوم مزنره روس الجرود ؛ بطيات لحف النيم نام بدر المنير .
قومي الحقيني ؛ بيّنا ضامو التعب ؛ جيبي المناجل ؛ ما بقى عندنا حطب ؛
قطمو الجدي واسودّ عنقود العنب ، وراح لطف الصيف وجانا الزمهرير!
لا ترعلي عا الصيف ؛ ما بدّا يكي ؛ طيّب خريف بلادنا ؛ ما بيشكي ؛
قديش بالغربه في ناس بتشتهي قعده بجنب النار عا شفقة حصير !

كأن هذه الابيات قد خيمت عليها سحائب الخريف المتلبدة الدكناء ، فينقبض لها صدرنا فورًا . اما وصف مبارك للشتاء ، الذي تنطوي عليه قصيدته

و حيا والتنورة » ؛ فهو يعمد الى تصوير الحركة ، فتأتي من تحسس دقائق الفصل الجزئية ، وقد صورها الناظم بريشته الرشيقة تصويرا يبلغ الايجاز الى الاعجاز :

ما حلا الشتا وما حلا البرد ، لو عندنا موقد بشكفان ،
وندفة تلج وطق الثرد ، والقعده حد النبع !
ما حلا الهوا بوسط الغاب ، وما حلا الكبوه حد النار ،
والرعد وطرق المرداب ، والدوري اللاطي الدار !
يا ما حلا زت التنتاف ، وصوت السنه والشحرور ،
وما حلا الميله بغرد لحاف ، وسراج زيت شحيح النور !
ما حلا خرير الوادي ، وبيت صفير وحاكورة ،
وما حلا يوم الأبده والعبا والتنوره !

يحب مبارك الترنم بمحاسن لبنان المتنوعة بتنوع الفصول ، على انه كلف اخص الكلف بوصف جمال العيشة البسيطة ، الهنيئة في حماه المحبوب . عيشة بعيدة كل البعد عن ابهة التمدن العصري وبذخه ورفاهيته ، بيد انها منزهة عن ضجته الناهكة لاعصاب الجسد وطعمه الاشعبي المضني بل الفني لاسمى قوى النفس ، ولا سيما عن فساده المتفاقم الهائل ، الذي يدهور الانسان الى ما دون مستوى الحيوان . عيشة فقرية ، ولكن القناعة تغنيها عن الثراء وتزيل عنها همومه الدائمة الفادحة . عيشة قشفة ، على ان لذة الشغل المجهد وطهارة الاخلاق الموروثة من الجدود تفيض عليها من السعادة المحضة ما يغبطها عليه اصحاب الملايين ! لا ترى نداً لشاعرنا المفلق في تصوير هنا . تلك الحياة الخالية من ضروب الاكدار ، المتعارفة لصفاء سماء لبنان الربيعية . اليكم قصيدة من غرر قصائده في هذا الشأن :

لو في عندي حاكوره وكرم وعرزال ،
ورحمة الله ، بتكفيني ؛ ما بدي مال !
ولو ان الارض فراشي ولحافي الليل ،
كنت بعيش عيشه هنيه ، برتاح البال !
بقوم عا كوره بتنشق عطر الورود ؛
بقطف من قاب الداليه لابني عنقود ؛
بسوق بقراتي قدامي ، بروح عا البرود ،

بفلح وبزرع في ارضي بزور الآمال !
بسرّب وبلاقي الفيدره بعدا عالبيدار ؛
بلاقي مرتي وولادي راحوا مشوار ؛
بلاقي الكلبه ملتقعه بقلب الدار ؛
وامي قدام العتبه ؛ بابدا منزال ؛
يا ريت عندي حاكوره وكرم وعرزال !

لقد ذاق مبارك طول طفولته نعيم تلك العيشة النقية ، الهادئة ، ثم حالت بينه وبينها اعوام الدراسة ، وبعد انقضائها تحتم عليه ، كما على آلاف من امثاله ، ان ينحدر من ضيعته العزيزة الى المدينة طلباً للارتزاق ، فلم يُنسه محيطه الجديد ، مع كل ما فيه من زخارق حضارة سريعة الترقي ، ملذات سنيه الاولى التي قضاها في حضن الطبيعة الرؤوم ، لا يدري من الحياة سوى اطايبها ومسراتها ؛ فهو لا يزال يتوق الى البيت الذي اظله في طفولته الوغيدة :

كنت صغير وصرت كبير ؛ يرمت بلاد المكونه ؛
غني عشت وعشت فقير ؛ ويا ما شقت بزماني ؛
وما في شي عا بالي يمرّ غير البيت اللي ربّاني !
ما حلى الضيعه والرزقات ، والراعي وصوت العترات ؛
وما حلى خرير الشلالات تحت شلاح السنديانه !
يا ترى يرجع شي يوم بشوف البيت اللي رباني ؟
ما حلى الكرم بشبر آب ، والشمس عند الغياب ،
والتلفيحة على التراب وليلة بسط وغناني !
بفضّل بيتي ، ولو خربان ، على البلاد العمرانه !
ما حلى يوم الكنت صغير ، نقفوط عشوش عصافير ؛
ما حلى المورج ، ما حلى النير والبيدر والبلانه !
يا ترى يرجع شي يوم امكن بيت اللي رباني ؟

اذا لامه لائم على ذلك الشغف بحياته السالفة في مسقط رأسه ، فانه يهب فوراً ، كالمسوس في حدقة عينه ، للدفاع عنها وتفصيل محاسنها الجمة وافراحها الساذجة ، التي لا يشوب حلاوتها شيء من مرارات عيشة المدن المضطربة :

بسألني : «شو في عندك في الضيعه تا انك مهتم ؟

« سبت يا روحي بيت جدي ... والصور وقرب [illegible]
« بلصيه عندي جدي ... تحاملا عشرين دراع !
« يا ما زرعناها نقل ... وحوشنا من زوع !
« في عندي القمحه بكثير ... تحت صنوبر نبعتنا ،
« وترويقه قُرّه وجرجير ، ... تسوى الفرمه وعيشتنا !
« عندي خلف البيت جبال ... تخبيم عاكرتنا ؛
« يا ما اصطدنا فيها حجال ... ويا ما رعيت قُرقتنا !
« يا ما عيشنا الله ... تين اسود من نينتنا ،
« ويا ما لبنا عا التله ... نحن وبنات حارتنا !
« عندي القمحه بيت جدي ... وعشرة حنّه وبو طنوس ،
« وللعب عندي شدّه ... وعندي للسهره فانوس.
« وفي عندي قرصته ... وبركه مغبره ونوفيره ؛
« بهاع مني ؛ رحماع تانتي ... عا بجّات المنجبره !

قد عبّر مبارك عن مثل تلك المعاني الجميلة في قصيدته « وادينا » و« عنت عا بالي الضيعه » ، اللتين يحوّل ضيق المقام دون ذكر مقتطفات منهما. اذا قابلناهما بالسابقتين ، تجلت لنا فورًا مقدرة الشاعر الفريدة على معالجة الموضوع ذاته مرارًا عديدة مع الابتكار الدائم في الخيالات والتعابير ، بل في الاوزان ايضًا ، وفي ذلك حجة دامغة تشهد بنبوغه .

ان هيامه بلبنان يثير في فؤاده ذكر اخوانه المهاجرين ، وقد فرّق الدهر شملهم في الخافقين . فاذ ارخى المساء سدوله على وهاد لبنان وهضابه ، ونشر جرس التبشير رناته الشجية بين الظلال المتكاثفة ، هاج الحنين الى النازحين روح الشاعر الفائقة الرقة ، ففاضت باشعار تتبارى فيها حرارة العواطف وبهجة الخيالات الجديدة :

دقت جراس الدير ... دقات الغياب ،
وطل القمر تا الليل ... يحلى للعتاب.
باتوا طيور المرج ... ونسمت الكروت
بيوشوش الوديان ... بضل الغياب.
ظل القمر بيهل ... محتن المسا ،

تـا القلوب نحن ويلـبن الاسى !
يا قلب ، ضَمّ صبور بين عل وعسى ،
بركي الامور تهون ونشوف الحباب !
بركي الامور تهون ويروح الزعل ،
ويفتحوا الزهرات يروح الامـل .
لـبـدّ ما بديارنا يفـاتي الحجل
ويلتفوا النيّـاب من بعد النيابه!

يجيد مبارك الشعر الرمزي اجادتـه للوصفي والعاطفي ؛ دونكم مثلاً « عنات الناعوره » ، وهي حافلة بالرموز اللطيفة الواضحة ، فضلاً عن الملاحظات والمغازي الصائبة :

ليكي الناعوره من بيد مبيّنه ، ومروج خضرا بالزهور مزينه ؛
دولابا بيدور وبيسقي الزهور ؛ صارلو سنين وايام والدنيه دنه ؛
يكفاك ، يا دولاب ، برم وعنه !

ليكي الناعوره كيف بتمشي القطع ، والنحل عبيمص زهرات الربيع ؛
دنية شفا وجهزد ما إلها بشبع ؛ عاكتاف الفقير بيعيش التني ؛
يكفاك ، يا دولاب ، برم وعنه !

يكفاك ، يا دولاب ، تسقي هالسجر ، وتسقي المراشي وضامن شغال الشر ؛
شربوا الميّه الصافيه وريوا الحجر ، وما كنت إفهم ليش عاشق ها الدنه !
يكفاك ، يا دولاب ، برم وعنه !

خفّف البرمات ؛ مش موجود حدا يقر بالمعروف ؛ جميلك راح سدى ؛
عنات صوتك صارخه ملء القضا : « مظلوم ! دلوقتي عا العيش الهنى!»
يكفاك ، يا دولاب ، برم وعنه !

تلك بعض النموذجات من آيات اميل مبارك في الشعر العامي ، وهي على رأينا من اجل مفاخر لبنان في ميدان الادب العصري! بل يلذ لنا ان نرى في انوارها البهية والوانها الفتانة انبلاج فجر جديد ، فجر الزجل اللبناني المتحرر في معانيه واوزانه من قيود الانتحال والابتذال ، وفي لغته الشعبية المحضة من آفات الاختلاط باللغة الفصحى ! وحسب اميل مبارك ، اجرًا لعناء نظمه ، ان يكون ديوانه الضئيل بحجمه والعظيم بقدره مجلى سطوع ذلك الفجر المجيد !